مقدمة الكتاب

هذه " المكاشفات ".. فصلٌ من كتاب
بقلم: عبد الرحمن بن محمد الأنصاري

الذين تعاملوا مع الكلمة المكتوبة والمنطوقة في المملكة العربية السعودية، هم وحدهم من يدركون البون الشاسع بين ما كانت عليه النّظرة (الرسمية) للكلمة والحساسية المفرطة تجاهها، وما أصبح عليه الحال من فتحٍ للباب على مصراعيه لها، فلا حسيب ولا رقيب على الكاتب أو القائل، سوى دينه وخُلقه وضميره.. وإذا كان ذلك كذلك (وهو كذلك إن شاء الله) فهو ثمرة ونتيجة للرغبة الموفقة التي جاءت بتغيير جوهري للكثير من الأوضاع في بلادنا عن طريق الأدوات الفاعلة من قبيل النظام الأساسي للحكم، والمجالس المتخصصة كمجلس الشورى، ومجالس المناطق، وتفكيك القبضة الصارمة على أدوات التعبير، من كونها كانت في هيمنة جهة حكومية مختصة في قراءة ما بين السطور، وسبر غور ما تكنه الضمائر.. إلى جعلها في عهدة مؤسسات عامة، إلى إلغاء الكثير من أدوات ومظاهر الستار الحديدي على الكلمة، الأمر الذي مكّن من رؤية بريق أسنان الكثيرين، من الذين كانوا لا يجرؤون على فتح أفواههم إلاّ في عيادات أطباء الأسنان..!

إنّ حقبة زمنية هي منزلة بين منزلتين فيما يتعلق بالكلمة وتاريخها، كالتي شهدتها بلادنا، لا يخالجني أدنى شك في أهمية تناولها وتسجيلها، بأكثر من زاوية وأكثر من موضوع، ومن هنا فإنّ أهمية هذه المواجهات التي ابتدعها زميلنا العزيز ـ عبد العزيز قاسم ـ في الصحافة السعودية وسماها بـ (مكاشفات)، تنبع من كونها

السجل الأمين والمعين الأوفى للباحث عن الحِقب الأدبية والفكرية التي تناولتها هذه المواجهات.. فـ (الحداثة) على سبيل المثال التي لها نصيب وافر من التناول من خلال المواجهة التي تمت في هذا السجل مع أشهر منظريها ومتبنيها، منذ أول بُدوّ فشوّها وظهورها في بلادنا، لا يمكنك وجود ما يشفي غليلك عنها في غير هذه المواجهات.

هذا فضلاً عن أنّ هذه (المكاشفات) هي بحد ذاتها فصلٌ من كتاب التغيير والتحوّل الذي تشهده ساحة الكلمة في المملكة العربية السعودية، من خلال المساحات الرحبة المعطى لها، بما لا عهد له من قبل.. ومن هنا فإن الأجيال اللاّحقة من الباحثين يُنتظر لهم أن يجدوا في هذه (المكاشفات) معيناً ثرّاً، يُسَهّل عليهم وييسر لهم، وضع أيديهم بأقصر السبل وأيسر الجهود، على الكثير من الخفايا التي كانت قابعة في زوايا حقبة من تاريخنا الفكري، وما مرّ به من النشوء والتطور.

وثمة أمر أراه جديراً بأن أختم به هذه التوطئة، وهو أن كون هذه (المكاشفات) قد سبق لها النشر مسلسلة في الصحف، من قبل أن تكون بين دفتي كتاب، هو أمر - في نظري - يُحسبُ لها لا عليها، بما أضفاه عليها من التمحيص والتصحيح والتدقيق، وتلاقح للأفكار وامتزاجها، فهي بذلك الأسلوب التوثيقي أشبه ما تكون بنتاج أكاديمي، تضافرت وتكاتفت عليه جهود الباحث، مع سديد رأي المشرف، وغربلة وتمحيص اللجنة المتحنة.

فالشكر لزميلنا العزيز أبي أسامة الأستاذ عبد العزيز قاسم على ما أولاه من العناية وبذله من الجهد، في سبيل هذه (المكاشفات)، التي سبقت الإشارة إلى أنها ستكون فصلاً من كتاب تاريخ ومسيرة الكلمة في بلادنا الحبيبة والله الموفق،

إعلامي وكاتب صحافي

بين يدي كتاب (مكاشفات)

كانت فكرة تحويل هذه المكاشفات الصحافية إلى أن تسترخي بين دفتي كتاب من اقتراح عميد الكتاب السعودي الأديب والمثقف المعروف محمد سعيد طيب، والذي لا أنسى أنه بعد قراءة مكاشفة د. محسن العواجي التي نشرت في صحيفة البلاد اقترح على كاتب السطور جَمْع هذه اللقاءات والمداخلات التي تتالت عليها في كتاب، توثيقاً وتأريخاً للمرحلة. وكم تراءت حينها مثالية الفكرة التي لم تخطر لي أبداً في مشروع مكاشفات. ولو رأى أبو الشيماء وجلي وترددي لقال لي بالحرف الواحد: أيها الابن، اتكاء إلى خبرة طويلة أزعمها في مجال الكتب، أؤكد لك أن كتابك إذا طبع سينجح. ولم يكتف جزاه الله خيراً بذلك، بل طوّع لي عبر معارفه ويسّر لي عقبات عديدة وترك لي حرية اختيار الشخصيات، وأبى أن أذكر مساعدته لي وإلهامه الفكرة في مقدمة كتاب (مكاشفات) الأول تحرجاً، بسبب اختياري مكاشفته ضمن من اخترت أن أنشر، مبتسماً بألم وحنكة العارف بأدواء النخبة في مجتمعنا بأن الألسنة المعوجة ستلوك حتما وتفرح بهكذا معلومة. بيد أنني أضمرت التنويه بهذا الفضل له في كتابي الثاني بالرغم من إلحاحه المتكرر بألا أفعل.. وكيف لا أعطي الفضل أهله وقد دعتني مكتبة" تهامة " كي أرفدها بالطبعة الثانية؛ لأن نسخ الكتاب الأول نفدت في أربعة شهور فقط ..

اخترت في الجزء الثاني من مشروع كتاب (مكاشفات) مكاشفة الناقد الأدبي والكاتب المعروف الأستاذ عابد خزندار، الذي أجمع كل من تابع سلسلة (مكاشفات) بأنها ومكاشفة الدكتور محسن العواجي الأقوى والأثرى على الإطلاق. ومردّ ذلك

عائد إلى كمية الصراحة التي أتحفنا بها الخزندار في مكاشفته، فضلاً عن جرأته التي ساط بها الجميع واخترم بها كل الموضوعات التي ناقشها، وأدلق آراءه جميعها بكل الشجاعة الأدبية التي لا تتوافر لكثيرين يعيشون على بقايا هالاتهم وبطولاتهم القديمة التي تشي بأنهم انهزموا أمام بشريتهم وحراك المجتمع من حولهم!!.

وكم كنت أبتسم وأنا أوجّه للخزندار الأسئلة الخاصة بتوقيفه السياسي وهو يرمقني بتعجب المشفق، ويجيب ظناً منه ألا نستطيع نشر ما يقول، وكان ظنه حقيقياً؛ لأن أقصى ما طمحت إليه في النشر إشارة عابرة مختصرة تخرج بالكاد متهالكة من ركام التشطيبات الحمراء الخاصة بقلم رئيس التحرير الذي سيغتال - كالعادة - صراحة الإجابات، فضلاً عن أنني أضمرت في نفسي أن تبقى هذه المعلومات التأريخية التي يدلي بها الخزندار وثيقة بحوزتي تنشر في مرحلة إعلامية لاحقة .. وأتذكر كيف أنني ناولت مادة اللقاء للزميل عبدالله العمري نائب رئيس تحرير صحيفة "المدينة"، وكان هو المسؤول عن الصحيفة وقتذاك لسفر رئيس التحرير د. فهد عقران، وأنا أهمهم همهمة الكهنة بالرفق بالمكاشفة وسطورها التي رصت عليها. وأفاجأ بأنه أعاد لي الأوراق بعد يوم أو يومين فقط، وهو يقول : ما الذي فعلته. ظللت أتساءل في نفسي، وأنا أقرأ مكاشفاتك، هل أنت محقق جنائي أم محاور صحافي ؟. .. تبدد أملي في كمية اختصارات بسيطة وزايلتني الابتسامة والتفاؤل وتناولت الأوراق منه وأنا أبحث عن اغتيالاته الحمراء بين السطور. وهالتني المفاجأة المتمثلة في تصويبات بسيطة. رجّعت البصر علّني أخطأت. أعدت عليه: يا أباعبدالعزيز، هل قرأت المكاشفة كلها، وبشكل دقيق؟ أومأ مبتسماً أن نعم، وأجزتها كاملة لك وأنا بحجم مسؤولية نشرها. لكم أكبرت الرجل في موقفه ذاك، وتذكرت من فوري أستاذي الأجلّ د. عبدالقادر طاش عندما قال قبلاً ذات العبارة في مكاشفة د. محسن العواجي .. وهكذا هم الواثقون دوما.

لم أسطّر ما سبق تملقاً أو ثناء مجانياً أصرفه، وأزعم أنني أكبر من هذا، وأخي العمري فوق ذلك، ولكنما الأمانة التأريخية. سيما أن هذه المكاشفة تحديداً اقتعدت مكانها في تأريخ الصحافة السعودية بشهادة أعمدة صحافية كبرى قالت بأن ما نشر في المكاشفة عن موضوع التوقيف السياسي في السعودية، والذي حصل في الستينيات الميلادية هو الأول من نوعه على الإطلاق الذي يتناول بهذا الشكل الصريح في صحيفة سعودية..

شكرت للأستاذ عبدالله العمري في مقدمة مكاشفات الخزندار في جزئه الثالث أثناء نشره في ملحق "الرسالة"، ونوهت بدوره كنوع من إرجاع الفضل إلى أهله وناسباً له وللخزندار هذا السبق الصحافي، إلا أنه رفض بشدة أن ينشر اسمه وملحّاً بإصرار على أن أكتب الشكر لقيادة التحرير فقط، وهو يقول أنت صاحب هذا السبق وأنت من يستحقه..

بقي أن أشير إلى أنني كلما أطالع كتابات الأستاذ عابد خزندار اليومية في زاويته (نثار) تنثال إلى الذاكرة مواقف لي معه عندما طلبت منه - بعد أن فرّغت اللقاء - وَضْع اللمسة الأخيرة لإجاباته. وسهر لثلاثة أيام متتالية كانت استثنائية في برنامجه اليومي الصارم، وأرسلها لي عبر البريد الإلكتروني الذي فتحته وإذا بي أمام صفحة بيضاء ناصعة كقلبه، ولم يك ثمة حرف واحد.. هاتفته بذلك، فبحث في جهازه واتضح أن ما سهر عليه تبدد بسبب عطل في كمبيوتره الذي لم يحفظ ما كتب، فاستشاط غضباً، وأضحت الكلمات تتطاير كالشرر، وهو يتحسر على أويقاته التي قضاها على المكاشفة. وأنهى المكالمة معي بوعد منه بأن إجاباته ستكون في بريدي الإلكتروني في غدي. وإذا تكررت ذات الصفحة البيضاء في اليوم التالي وتطايرت عبر سماعة الهاتف كلماته المنصرمات ولكن هذه المرة بشيء من الألم

الممضّ؛ لأن التحسّر كان بحجم ليلة كاملة قضاها منهكاً وفي سنّ لا يسمح له بالسهر، وأثناء نفثاته الضجرة المتتالية والصاخبة انفلتت منه كلمة (أريد أن أنتحر) وكررها بلا وعي. وقفت فزعاً وصحت بشكل لا إرادي: لا، أرجوك. لا تفعل فإني لم أستلم منك مادة المكاشفة بعد.. وانتبهت بعد ذلك إلى الطمع البشري الذي تلبّسني وجعلني أهتف بلا إدراك مني أو أثارة من مروءة.

ويبقى أن أختم بشكر لكل الذين تفاعلوا مع ما طرح في مكاشفات، وكتبوا ما يعتقدون بأنه نصرة للحق وللتأريخ، وإن أصابتني بعض شظاياهم الحادة وقتئذ، إلا أن كل مشاعر الغبن خاصتي تبددت، وأنا أقرأ هذه المداخلات بعد حين والتي كتبها أساتيذ كبار بنبل ومروءة ووفاء للأديب عبد الله الجفري وغيره. وحمداً لله أن عادت المياه لمجاريها بين الأديبين الكبيرين وبقيت تلك المعركة وغيرها ملكاً لتأريخنا الأدبي المحلي. فشكراً للأحبة د. عاصم حمدان والأستاذ علي حسون والأستاذ أحمد المهندس..

اختياري الثاني كانت لمكاشفة الداعية الشهير والخطيب المفوّه والأديب الشاعر د. عايض القرني، وسبب اختياري جماهيرية الرجل العريضة، وأسلوبه الفكه القريب الموشّى بأبيات ومُلَح نادرة يحفظها عن ظهر قلب. وبالرغم من قمعي له في بداية المكاشفات، إلا أنني أسجّل لأبي عبدالله ومحبيه اعترافا بخطئي الفادح في ذلك القمع غير المبرر بعدم قول الشعر، مفوّتاً إيقاعاً موسيقياً ربما كانت ستحدث انزياحات نفسية مهمة أمام ضراوة الحوار وقسوة الأسئلة. العجيب أن د. القرني كان يستشهد بالأبيات من غير إرادته أثناء حديثه، جبلّة منه، فيبتسم عندما يرى تعابير وجهي المعترضة ويتوقف عن إكمال الأبيات.

والسبب الثاني يكمن في أن مكاشفة د. القرني أحدثت لغطاً في أوساط طلبة العلم؛ ذلك أنهم لم يألفوا أن يناقش الشيخ أو الداعية بأسلوب صحافي يغوص إلى

عمق فكرته ويجادله، بل يصل إلى اتهامه وتخطئته. والشائع في تلكم الأوساط هو أن يتحدث الشيخ ويصغي المريدون. ورغم حفاوة داعيتنا الأحبّ بالمكاشفات وثنائه الجليل، إلا أن أحد طلبة العلم وهو الشيخ باحث الخزرجي أطلق شواظا من مداخلة نارية لم يبق فيها ولم يذر. وتحدث بما اعتمل في نفوس كثيرين من طلبة العلم من أن طريقة محاورة الداعية أو العالم لا تكون بأسلوب المواجهة والمكاشفة التي رأوها مع داعيتهم الأثير، ما جعل دعاة كباراً يحجمون أو يجفلون- لا فرق - في أن يكونوا ضيوفاً على (مكاشفات).

ويبقى حبي في الله المتعاظم للداعية الكريم، وقربي واستمزاجي النفسي له سببًا رئيساً في تقديم مكاشفته في هذا الكتاب. وكم من مرة انثالت ذكريات أيامي في الجامعة ونحن شباب غضّ في أواخر الثمانينيات الميلادية، عندما كنا نتسابق لاقتناء مواعظه وخطبه الملتهبة أيام (صقوريته)، وها قد عاد الشيخ إلى الساحة الدعوية وقد أفاد من كل سني حياته وتجاربه خطيباً ومحاضراً، يجوب الوطن من أقصاه إلى أقصاه، يدعو بخلق المصلحين ويفتي متكئاً إلى علم شرعي متين، ولا نزكي على الله أحدا. وقد شهدت له شخصياً قبل عامين محاضرة في الطائف كان حضورها قرابة الـ٢٨ ألفاً أو يزيدون.

اختياري الثالث كانت لمكاشفة د. سعيد السريحي التي أحدثت في حينها دوياً في الوسط الثقافي، وهي التي أعطت بعض الشيوع والشهرة لمشروع (مكاشفات). فقد ساط أبوإقبال وقتها خصومه بلا هوادة، خصوصاً الفصيل الواقعي من تيار الحداثة الذي كان ينتمي إليه وقتذاك الشاعر محمد الثبيتي والناقد فايز أبا شفاه الله والأديب عبدالله باهيثم يرحمه الله، بالإضافة إلى أستاذهم الأكبر محمد العلي. وأتذكر أن باهيثم، الذي كنت زميلاً معه في (البلاد) وأفدت في بعض أسئلتي منه،

يمسك برأسه من هول ما يقرأ من قذائف وحمم السريحي، ويضحك تارة من بعض السطور التي تحدثت عن جلساتهم الخاصة، ويستشيط غضباً تارة أخرى من إغلاظ الخصومة التي تبدت في الحوار. وراجعني بعدئذ طالباً - وملحّاً باستعداء رئيس التحرير إن لم أفعل - مساحة لثلاثة من كبار الفصيل الواقعي ليردوا على السريحي، وطبعاً وافقت بل رحبت بذلك، ولكن الأخوة ارتأوا السكوت كي لا يتفرع الجدال- كما أخبرني لاحقا- إلى جزئيات شخصية، خصوصاً وأن السريحي كان مستعداً لكشفها حينها فيخسر الجميع..

وعندما كنت أسأله رحمه الله عن بعض أسرارهم يضحك من قلبه ويقول: يوماً ما أعدك بتفاصيل ما تقول تأريخاً للمرحلة التي تبحث، وحكى لي بتفاصيل التفاصيل عن كثير من المواقع والأحداث و المثقفين بما سأكتبه يوماً ما عندما تكون الأجواء موائمة لتقّبل حكايا اللوبيهات الصحافية وما يفعلون..

ولأن تلك المكاشفة كانت الثانية لي، حيث لم تأخذ شكل المكاشفات التالية التي تبدأ بمراحل الضيف العمرية وقراءاته والشخصيات التي تأثر بها، والتي يحرص كثير من محبي (مكاشفات) عليها، كونها تسلط الضوء على مراحل التكوّن الفكري للضيف، ما يساعد كثيراً في فهم تلك الخلفيات التي تكوّن منها إذا أحب احد ما أن يدرس شخصية الضيف..

عدت لأبي إقبال بعد ثلاثة أعوام أستقرئ معه تلك المراحل ووجدته كما هو مفعماً بالحيوية ومدخناً بشراهة، والمكتب ذاته ذو الأوراق المتناثرة. إلا أن ثمة هدوءا نفسياً - تلمّسته - يسكنه، ولا أدري مرده. أهو بسبب العمر؟ أم هي الانتكاسات من حوله ؟ أم قناعته التي وصل إليها أخيرا بأن أجواء المجتمع الذي يعيش، لا تبدده بطولات موهومة مغترة باندفاعة الشاب وحماسه لتغيير العالم بأيدلوجيته التي

يعتق..لا أدري ولم أشأ أن أسأله .. لكنني متأكد بأنه سيلحق يوماً ما قرينه الغذامي إلى ذات الخط.. يوماً قريباً في ما أظن..

يبقى أن أسجل رأياً في ضيفي بأن الصحافة قد كسبته، ولكنه هو من خسر. فالرجل حقيقة يملك فكراً - اتفقنا أم اختلفنا معه - تاه فعلا بين متابعة محرري قسمه وبروفات الصفحات والجري وراء الخبر الصحفي..

وأشكر أخيراً زملائي الأساتذة نزار عثمان، وأحمد عدنان، ونزار عبدالباقي، ومحمد المباركي، الذين قاموا بمساعدتي في هذا الكتاب، تفريغاً وتصحيحاً ومشورة، فلهم كل الحب والشكر.

عبد العزيز محمد قاسم

جدة - ١٥جمادى الأولى ١٤٢٤هـ